رأس البر
منتجع سياحي .. تجسيد لآيات قرآنية

رأس البر – منير الفيشاوي

"مصر هبة النيل" تعبير غني بالبلاغة أطلقه المؤرخ الإغريقي "هيرودوت" إبان زيارته لمصر في القرن الخامس ق.م، عبر من خلاله عن عظمة هذا النهر العظيم الساري مياهه في عروق مصر والمصريين، جالباً معه الخيرات وأسباب الحياة عبر رحلة طويلة تبلغ 6695 كم مرورا بعشر دول أفريقية، تنتهي في شمال مصر بفرعين يمثلان ما يسمى "دلتا نهر النيل"، أحدهما يدعى "فرع رشيد" وينتهي عند مدينة رشيد القريبة من الإسكندرية، والآخر"فرع دمياط" وينتهي عند شبه جزيرة رأس البر، بتلامس إعجازي ساحر مع مياه البحر الأبيض المتوسط.

آيات من سورة الرحمن وتتجسد معجزة هذا التلامس (وليس المصب) في عدم مخالطة المياه العذبة لنهر النيل مع المياه المالحة للبحر على الرغم من التقائهما، مصداقا لقول الله تعالى في كتابه العزيز في سورة الرحمن:"مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان"..، حيث تعني كلمة "مرج": أرسل..، بمعنى أن الله قد أرسل المياهين المختلفتين في الخواص والمذاق، وقدر لهما أن "يلتقيان" عند نقطة تماسهما، وبإعجاز إلهي لا يقدر عليه سواه عز وجل..جعل بينهما مانعاً أو حاجزاً غير مرئي للمشاهد أشار إليه في الآية الكريمة ب"البرزخ"..يمنع اختلاط مياههما..العذبة والمالحة، كي لا تفقد كل منها خواصها التي خلقت من أجلها..فتفسد، ذاكراً: "لا يبغيان"..أي لا يبغي أو يطغي أحدهما (النهر أو البحر) بأن يصب في مجرى الآخر. يالها من معجزة إلهية، تتجلى ذروة روعتها عند مشاهدتها ورؤيتها رأي العين في موقعيها الأصليين، وخصوصاً في شبه جزيرة رأس البر.

منطقة اللسان

تعد منطقة اللسان برأس البر بمثابة مسرح طبيعي مفتوح لمشاهدة تجسيد وتفسير لآيات قرآنية على أرض الواقع تشهد بمعجزة إلهية . وقد أطلق على هذه المنطقة اسم " اللسان" نسبة إلى ذلك

عبير

النتوء الصخري الطبيعي المطل على كليهما.. (النهر والبحر) عند نقطة تلامسهما والممتد ما بين المياهين في شموخ، والذي تطور حالياً بأيدي المصريين ليصبح نتوءاً حجرياً أسمنتياً لدعمه وحمايته من عوامل التعرية والتآكل، ويبلغ طول اللسان حوالي مائتي متر، وعرضه حوالي 20 متراً، لا يصد ضغط المياهين بقدر ما هو شاهد عليهما، فحين مشيت عليه.. كان النيل إلى يميني والبحر إلى يساري وأمامي، وعند نهايته.. ميداناً دائرياً يتوسطه فناراً متوسط الإرتفاع كان يستخدم (وما يزال) لإرشاد السفن والقوارب في الليل عن إقتراب موقع اليابسة، وإلى يمين هذا الميدان.. يبدو مضيقاً محدداً بكتل حجرية تنتهي بفنار آخر صغير.. عندها (ما بين الفنار الصغير واللسان) تقع نقطة تلامس المياهين، والتي كانت حتى أوائل السبعينيات من القرن الماضي.. مرئية بوضوح بالعين المجردة، نتيجة إختلاف لوني المياهين، حيث كانت مياه النيل مختلطة آنذاك بالطمي الذي كان يكسوها باللون البني المائل للإحمرار.. قبل حجز السد العالي للطمي في السنوات اللاحقة، وكان إختلاف اللون هذا عن مياه البحر بزرقته الصافية المائلة للإخضرار.. مشهداً مذهلاً ورائعاً لخط طبيعي واضح يشير لعدم اختلاط المياهين، وهو ما ليس متوفراً في الآونة الحالية لتماثل لونيهما.

رحلة مثيرة.. بحثاً عن البرزخ

ولغرض التحديد الدقيق لموقع البرزخ، تفتق ذهننا لخوض غمار تجربة مثيرة، حيث استقلينا أحد القوارب وقررنا العبور به من النيل إلى البحر.. والعكس لنرى ماذا سيحدث، وكانت بحق رحلة مثيرة ورائعة بطعم المغامرة، حيث سار بنا القارب فوق صفحة النيل المستقرة بسهولة ويسر، وفجأة.. أعلن البرزخ عن نفسه وموقعه بدقة لحظة أن باغتنا القارب بالقفز إلى أعلى والإرتطام بصفحة المياه، مع الإرتجاج بشدة يمنة ويساراً لبضع ثوان، إذن.. هنا بالضبط انتقلنا إلى مياه البحر، استقر بعدها مساره على وضع صفحة مياه البحر المضطربة – جراء حالة الموج والمد والجزر– والسر في ذلك يعود إلى ارتفاع درجة كثافة مياه البحر بفعل ملوحته. وفي رحلة العودة إلى النيل ثانية.. حدث العكس، حيث صفع القاع الخارجي للقارب صفحة مياه النهر بشدة أيضاً وشعرنا أن القارب قد غاص قليلاً في المياه..

من ناحية اخرى.. فقد أعادتني زيارة منطقة اللسان برأس البر بالذاكرة بضع عشرات من السنين إلى الوراء، حين كنا كأطفال– آنذاك – نتوجه إلى "

" اللسان" ونتخير أحد الصيادين الذين كانوا بذكائهم الفطري.. يستثمرون بركة هذا الموقع لصالحهم، فكان البعض منا – وأنا أولهم – يعطي الصياد قرشاً وحداً (1/100 من الجنيه) مقابل أن يطرح شبكته في مياه النيل هناك.. وكل وحظه، فما يعلق بالشباك من أسماك.. هو من بخت دافع القرش الذي كانت الرمية على اسمه، وحين كان الحظ يبتسم لي من رمية واحدة أو عدة رميات، كنت أعود إلي حيث أقيم مع الأسرة برأس البر حاملا سمكاتي وخيال نعومة أظافري، مطالباً أمي بإلغاء طعام الغذاء الذي قامت بإعداده، بدعوى أني عازم الأسرة على وجبة سمك " قمت باصطياده"!؟

مدينة رأس البر

تعد مدينة رأس البر الواقعة على بعد 210 كم باتجاه الشمال من القاهرة.. منتجعاً صيفياً مصرياً شهيراً، كان حتى ستينيات القرن الماضي يقصده علية القوم ومشاهير المجتمع من طبقة الباشوات والحكام والفنانين، وما تزال فيلا كوكب الشرق " أم كلثوم" هناك خير شاهد على ذلك حتى الآن، ولكن مع تطور المدن الساحلية الأخرى.. انسحب هؤلاء منها بحثاً وراء الجديد، إلا أن رأس البر حافظت على طبيعتها العذرية التي اتسمت وما تزال تتسم بها، حيث البساطة والهدوء والأمان الباعث على الاستجمام، والتفرد في الطابع المعماري البسيط لها والمتلخص في صيغة الفيلات المقسمة إلى شقق بارتفاعات غير مسموح بأن تتعدى الثلاثة طوابق باستثناء بعض الفنادق المعدودة، وبالتالي فالنقاء البيئي هو عنوانها، خصوصاً أن تراص الفيلات في خطوط متوازية ومتعامدة بين النيل والبحر.. يفصل بينهما شوارع رملية ويحمل كل خط منها رقماً، يسمح للجميع بتلقي هواء البحر العليل دون موانع، كما يسمح لمعظم ساكني الفيلات رؤية الشاطىء.. خصوصاً تلك القريبة منه.

وتتخذ مدينة رأس البر.. شكل شبه الجزيرة صغيرة الحجم، فطولها لا يتعدى الخمسة كيلو مترات وعرضها كيلو مترين عند أطول أضلاعها، وهي مدينة صيفية بالأساس، حيث يرتادها راغبو الإستجمام في شهور الصيف وبعض من الربيع والخريف، يستمتعون في الصباح بأهم معالمها ومواقعها المحددة في : شاطىء البحر، وشاطىء النيل (الجربي)، ومنطقة اللسان.

فشاطىء البحر ذو الرمال الصفراء يعج بالحركة، حيث ينصب المصطافون الشماسي ويجلس تحتها من يجلس، ويمارس الباقون كافة ألعاب ورياضات البحر، ويسليهم طوال

الوقت الباعة الجائلين الذين يعرضون كافة السلع وعربات الآيس كريم المتخذة أشكال القوارب المحمولة على عجلات، مع توافر كافة الخدمات على الشاطىء التي تفي بكل إحتياجات مرتاديه.. على مدار ساعات النهار والليل دون توقف، وما أروع مشاهد بزوغ قرص الشمس الذهبي عند موعد الشروق، وغيابه عند الغروب متلامساً مع مياه البحر في الأفق البعيد.

أما شاطىء النيل بضفة رأس البر والذي يدعى"الجربي" فله طابع آخر، حيث تصطف المقاهي والكافيتريات والمطاعم والنوادي والمساجد في صف واحد متجاورة بإطلالة على صفحة النهر الخالد، وهناك يستمتع مرتادوه بالجلوس وتجاذب أطراف الحديث والتأمل والنظر إلى ضفته الأخرى المسماه " عزبة البرج"، ويلهو الباقون بالسباحة الحذرة بمياه النيل العميقة ونزهات القوارب طوال ساعات النهار، كما يحلو السهر في " الجربي".. لما يتسم به من هدوء.

ليالي رأس البر

وعلى صعيد آخر، تشهد فترة المساء في رأس البر حركة ملحوظة خصوصاً بشارع النيل الممتد من اللسان وحتى منتصف المدينة حيث يحلو لجميع الرواد الزائرين التنزه سيراً على الأقدام جيئة وذهوباً في هذا الشارع والذي يمنع فيه مرور السيارات من الغروب وحتى ما بعد منتصف الليل للإستمتاع بمعالم جانبي هذا الشارع، فالجانب المتاخم للنهر تتراص به في صف واحد عشرات المطاعم والكافيتريات، والجانب الآخر يضم محال بيع الملابس وأدوات البحر والعاديات والصيدليات ودور السينما والمسرح.. في صف واحد أيضاً.

أما منطقة وسط المدينة والتي يطلق عليها إسم " السوق الكبير" فتتلألأ أضواؤها في المساء بصورة بديعة.. وتضم كل ما يخطر على البال من محلات ومطاعم.. خصوصاً تلك التي تقدم الفطير المصري والحلويات التي تشتهر بها محافظة دمياط – التي تتبعها مدينة رأس البر – مثل : المشبك واللديدة والهريسة الحلوة والبسبوسة والملبن (الحلقوم) وعشرات الأنواع الأخرى.

وتتناثر في باقي أنحاء المدينة أسواق صغيرة أخرى تمثل نسخاً مصغرة من السوق الكبير وأهمها سوق63، علاوة على دور السينما والملاهي والسيرك.. وغيرها من المنشآت المصممة خصيصاً لإمتاع رواد المصيف.

وتعد أهم المتع بهذا المنتجع الصيفي الرائع.. الحرية والبساطة والأمان، فلا أتذكر أني قد شاهدت أحداً بها مرتدياً البدلة ورباط العنق، فلك أن تتخير

السير مرتدياً الكاجوال – رجالاً ونساءً من كافة الأعمار – أو الجلباب أو حتى المايوه، منتعلاً حذاء أو نعال بسيط أو حتى حافي القدمين، لا أحد ينظر إليك أو يراقبك بامتعاض، فالكل هناك يمارس نفس البساطة ومشغول بالإستمتاع والإستجمام وقضاء أحلى الأوقات.. وبناء صروح من الذكريات الجميلة الرائعة في رأس البر.

وإلى رحلة مقبلة